باسمك اللهم

للأستاذ محمد سعيد العريان

اليومَ هلالُ المحرم من السنة السابعة بعد البعثة

وقد وقف أبو الحكم ابن هشام المخزومى موقفه من نادى قومه، واجتمع إليه قبائلُ من أشراف مكة وذوى الرأى من قريش يسمعون مقالته؛ وما منهم أحد إلا كان له بلاءٌ فى إيذاء محمد وصحابته حتى بلغوا فى الكيد لهم ما بلغوا ولم ينالوا منهم منالاً؛ فإن أبا الحكم وأصحابه اليوم لفى هم ناصب وأمر عظيم ...

إن أمرهم ليوشك أن يفلت من أيديهم، وهم أعلى قريش منزلة ومكانة بين سائر العرب، من الساحل إلى أطراف البادية. وهذا محمد وإنه لرجل فرد ليس له منعةٌ من أهل ولا عصبيةٌ من دم ولا جاه من غنى، وإنه على ذلك ليحاول أمراً يفرّق جماعتهم ويفيّل رأيهم ويلحد فى آلهتهم وما يعبدون؛ حتى ليوشك لو خلّوا سبيله أن يكون هو صاحبَ الرأى والسلطان فى العرب جميعاً ... وأين هو من هؤلاء وأنّى يبلغ؟

ولقد افتنّتْ قريش فى حربه ومناهضة دعوته والكيد له ولأصحابه ما بلغ بهم الجهد، ليصرفوه عن وجهه ويفضّوا صحابته من حوله؛ فما بلغوا شيئاً مما أرادوا، وإن دعوته لتنتشر وتذيع حتى يتسامع بها العرب، وإن أصحابه ليزيدون ويكثرون، وإن قبائل العرب من قريب ومن بعيد لتسمع عنه وتعرف من خبره ما لا يريد أبو الحكم بن هشام وحزبه أن يعرف أحد؛ بلى، وإن هذه الدعوة لتطوى البيداء وتجتاز البحر من ساحل إلى ساحل حتى تجد الطمأنينة والسلام فى بلد المسيحية من مملكة النجاشى!

يا للعاقبة لو بلغ محمد ما أراد!

* * *

... واجتمع وجوهُ قريش وأصحاب الرأى فى مكة يتشاورون ليدبروا لهم أمراً ...

وقال أبو الحكم بن هشام:

«يا قوم، أما إنه ليوشك أن يكون أمرٌ شديد! وإن هذا الرجل ليبالغ فيما يدعو إليه حتى كان ما كان من أمره؛ فإن لم يكن قتلُه واستئصال خضرائه حتى نذهب بدعوته ونذهب به، فليكن تدبيرٌ جديد ...»

وتطاولت الأعناق تترقب ما يكون من تدبير أبى الحكم فى جهاد محمد وأصحابه، واسترسل يقول:

«... ألا إن هذا الحىّ من بنى عبد مناف هو منا ومنكم حيث علمتم؛ وإنهم ليطلبون غايةً ليس إليها سبيل، أفنتركهم وما يحاولون حتى يئول أمرهم إلى أمر؟ ...

«... وهذا أبو طالب بن عبد المطلب يمنع ابن أخيه أن يخلص إليه ما يكره، فما لنا سبيل عليه بعدُ؛ فليجتمع أمرهم على ما يريدون وليجتمع أمرنا؛ ولتكن براءةٌ قاطعةٌ بيننا وبين هذا الحى من قريش: لا معونة بيننا وبينهم فى أمر؛ فلا نبيعهم شيئاً، ولا نبتاع منهم، ولا نخالطهم فى شىء؛ وكل رحم بيننا مقطوعة حتى يفيئوا إلى أمرنا؛ فإنهم يوشكون إن بلغتْ هذه القطيعةُ أن تجف خضراؤهم فيموتوا جوعاً وعطشاً وعُرْياً، أو يعودوا إلينا مغلوبين وما تجرد سيف من غمده ولا أُريقَ دم!

«يا قوم، فإن رأيتم فهذه يدى، وليكن بيننا عهد مكتوب نعلقه فى جوف الكعبة توكيداً لما تقاسمنا عليه ... وإن أبيتم ...»

وصاح صائح من أقصى المجلس: «رضينا يا أبا الحكم!»

وجاء كاتبهم منصور بن عكرمة فأملى عليه:

«باسمك اللهم ...

«هذا ما تعاهد عليه أشراف مكة وذوو الرأى من قريش: أبو الحكم بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، ومنصور ابن عبد شرحبيل، وبغيض بن عامر ... أنهم بُرآء من بنى هاشم وبنى المطلب، لا يبيعونهم شيئاً، ولا يبتاعون منهم، ولا يخالطونهم

فى شىء ، وكل رحم بينهم مقطوعة ؛ حتى يفيئوا ... »

وتناول أبو الحكم الصحيفة فطواها ، ثم علقها فى جوف الكعبة ، ليشهد الله أمرهم وأمر بنى عبد مناف !

* * *

وأوى محمد وأصحابه إلى شعب أبى طالب من شعاب مكة ، حتى يقضى الله أمراً بينهم وبين بنى عمهم من قريش ، ليس لهم مطمع إلا فيما بين أيديهم من طعام ولباس وشراب ، ولا يعرفون إلى كم يمتد الحصار المضروب عليهم فى هذا الشعب الضيق ليس له إلا باب واحد يقف الأعداء بمرصد قريب منه يمنعون أن يدخل إليهم داخل بشىء من الزاد أو الميرة ...

وتتابعت الشهور شهراً فى أذيال شهر ، والمسلمون فى معتقلهم من شعب أبى طالب ، لا يجدون من الطعام ما يغنى من جوع ولا من اللباس ما يدفىء من قر ، إلا ما يتسلل إليهم فى جنح الليل من شىء ليس فيه غناء يرسله إليهم من يرسل من أبناء عمومتهم على حذر ورقبة !

وجاء الموسم ، وأم الحجيج من قبائل العرب سوق مكة يسوقون الإبل قد أوقرت طعاماً وبزاً ليبيعوا ويشتروا ويتعوضوا

وطمع المسلمون أن يكون لهم من أولئك شىء ؛ فإن هؤلاء التجار العرب فى حل مما تعاقد عليه بطون قريش ، فإن لهم أن يبيعوا أبناء عبد مناف ما يشاءون من بضائعهم يداً بيد ؛ فما كان لهم فى تلك (الصحيفة) الظالمة رأى ولا عقد

ويخرج من يخرج من المسلمين ليشترى زاداً من زاد القوم ويبيعهم مما عنده ، ويقف على صبرة من قمح يهم أن يشتريها ، ويبصر به أبو لهب فيقوم فى السوق منادياً :

« يا معشر التجار ، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً ، فقد غلمتم مالى ووفاء ذمتى ، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم ! »

ويسمع التجار ما قال أبو لهب ، فيزيدون على المسلمين فى السلعة قيمتها أضعافاً ، فيرجع المسلمون إلى أهليهم وما باعوا ولا اشتروا وليس فى يدهم شىء يطعمون به ؛ ويغدو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما معهم من الطعام واللباس !

ومضى عام وعام وأوشك ثالث ، والمسلمون حيث حصرهم أبناء عمومتهم من قريش ، حتى جهدوا وأشفت نفوسهم على التلف جوعاً وعُريا ...

ويرى محمد ما أصاب أصحابه فى سبيل الله ، فيثبتهم ويربط على قلوبهم ، ويقول :

« لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ؛ ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ؛ وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله ! »

فتهدأ نفوسهم مطمئنين إلى العاقبة !

ويبلغ بهم الجهد ، حتى يأكلوا ما يسقط على الأرض من ورق الشجر ، وحتى يصنعوا ما تصنع الشاة : لا تجد أكلاً إلا ما تقتم من حشاش الأرض ومن بارض النبت فى مسايل اللوى ...

ويشد سعد بن أبى وقاص على بطنه من ألم الجوع حتى يكاد يلتصق بظهره ؛ وينال منه الجوع حتى يخرج فى سواد الليل يلتمس رمقه ، فيطأ على شىء رطب ، فيضعه فى فمه فيبتلعه ، لا يدرى ما هو ، ولا يجد له فى فمه مذاقاً ! !

ويتضاغى أطفال المسلمين من الجوع ، وتسمع أصواتهم من وراء الشعب صائحين من السغب والتربة !

والمسلمون على ما بهم : لم ينل منهم الكفارُ منالاً بما صنعوا لأنهم وهبوا نفوسهم لله ؛ فلا عليهم أن يموتوا جوعاً أو يموتوا مجاهدين فى سبيل الله ! ...

* * *

وتسامع المشركون بما نال محمداً وأصحابه من الجهد والسغبة فمنهم من مره ذلك ، ومنهم من ساءه ...

ويفرح أبو الحكم بن هشام بما نال المسلمين من الجهد والسغبة ، ويستخفه الفرح حتى يأمل أملا ...

ويغضب من يغضب من قريش لما نال إخوانهم وأبناء عمومتهم من بنى عبد مناف ، وإن كانوا على دين محمد !

ويشفق هشام بن عمرو بن ربيعة على ما نال أخاه لأمه نضلة ابن هشام بن عبد مناف ، وكان مع المسلمين فى شعب أبى طالب ، فيأتى ببعيره قد أوقره طعاماً وبزاً ... فيُقبلُ به فمَ الشعب ليلاً وقريشٌ فى غفلاتها ، ثم يخلع خطامه ويضرب على جنبيه فيدخل الشعب عليهم ليقتسموا ما يحمل من طعام وبز ... وماذا يغنى بعيرٌ واحد والمسلمون كثرةٌ يكاد يقتلها الجوع والعرى ! ...

ويقول أبو طالب لابن أخيه : « لقد بلغ الجهد منا ما ترى ، وإن رجالاً من قريش قد استشعروا الندم على ما تعاقدوا عليه ، لولا شرفُ السمعة وتهمة الخيانة لأحلوا أنفسهم مما ارتبطوا به من عهد الصحيفة ! »

وابتسم محمد بن عبدالله ، وقال : « يا عم ، إن الله قد سلَّط الأَرَضة على صحيفة قريش ؛ فلم تدعْ فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفتْ منها الظلمَ والقطيعةَ والبهتان ! » ...

ويفرح أبو طالب ويقول : « أربك أخبرك بهذا ؟ »

قال : « نعم ! »

... وخرج أبو طالب إلى قريش فى ناديهم ليتحدث إليهم فى أمر ...

ويصعب على هشام بن عمرو ما يلقى أخوه نضلة والمسلمون معه ، فيمشى إلى جماعة من أشراف قريش لهم فى بنى عبد مناف صهر وخئولة ؛ فيحرضهم على نقض الصحيفة ، رعاية لحرمات النسب وحفاظاً على حق الدم ، فيجتمع على رأيه بضعة نفر ، فيتوافون على ميعادهم إلى حيث كان وجوه قريش مجتمعين فى ناديهم من الحجر ؛ ويقدمهم زهير بن أمية (وأمه عاتكة بنت عبد المطلب) فيطوف بالكعبة سبعاً ثم يقبل على الناس فيقول :

« يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! »

ويرتاع أبو جهل بن هشام لما يسمع ، فلا يكاد يرد رأيه حتى تأخذه الأصوات من كل جانب : « مزقوا الصحيفة ، لا نرضى ما كُتب فيها ونبرأ إلى الله منه ! »

تلك كانت أصوات هشام بن عمرو وأصحابه الأربعة : المطعم ابن عدى بن عبد مناف ، وزهير بن أمية بن المغيرة ، والعاص ابن هشام ، وزمعة بن الأسود

ويبلغ الغيظ بأبى جهل وأصحابه ما يبلغ ، أن رأوا ما أجمعوا عليه يحاول أن يخرج من أيديهم حين ظنوا أنهم من النهاية التى يهدفون إليها على خطوات ، وأن محمداً وأصحابه يوشكون أن يفيئوا ... !

وقال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل ، وما أحسبكم إلا دبرتموها فى غير هذا المكان !

ويقدم أبو طالب بن عبد المطلب فى جماعة من بنى أبيه قد لبسوا أحسن ما يجدون من الثياب ؛ فما إن يسمعون ما يقول أبو جهل حتى يبتدره أبو طالب : « بل هو أمر قد قضاه ربُّ محمد ! »

والتفت أهل النَّدِىّ إلى حيث كان أبو طالب فى أهله ، لا يدرون ما يعنى مما يقول !

وتقصَّفَ الناس على أبى طالب يستثبتونه عما قال ، ومضى فى حديثه :

« ... بلى ، وإن بيننا وبينكم هذا العهد المكتوب فى الصحيفة ، فإن ابن أخى أخبرنى من أمرها ... فهلم إلى صحيفتكم ؛ فإن كان كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها ؛ وإن كان كاذباً دفعته إليكم فما شئتم فافعلوا به ! »

ووثب المطعم بن عدى إلى حيث كانت الصحيفة فى جوف الكعبة ، وفض غلافها ، ونظر ، ونظر القرّاء ؛ فإذا الأَرَضةُ قد لحستْها لم تترك فيها من شىء يُقرأ إلا « باسمك اللهم ... »

... ...

* * *

وخرج المسلمون من شِعب أبى طالب إلى فضاء مكة كعهدهم يوم كانوا ؛ وانفك الحصار الذى كان مضروباً عليهم ثلاث سنين لا يبيعون ولا يُباعون ؛ وإن كانوا من عداوة المشركين لهم وائتمارهم بهم فى حصار أمنع وأبلغ ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم ينلْ من نفوسهم ولم يوهِن عزائمهم

ومضت أربع سنوات أُخر ؛ ثم انطلق المسلمون من الحصار المضروب عليهم حول مكة كلها مهاجرين إلى حيث يؤلف محمد وصحابته حكومتهم فى دار الهجرة ؛ ولا تمضى إلا سنواتٌ من بعدُ ، حتى يكون محمد وأصحابه فى طريقهم إلى مكة يقودون الجحفل اللجب ليحاصروا مكة كلها ويُسلم إليهم أهلها صاغرين !

ودار الفلك دورته ؛ فإذا تلك القِلّة من بنى عبد مناف وجيرانهم الذين كانوا بالأمس محصورين فى شعب من شِعاب مكة لا يجدون ما يأكلون — قد وثبوا أكبر وثبة عرفها التاريخ ، فإذا منهم القادة والسادة والأمراء ، يضعون يدهم على مفاتيح خزائن الدنيا ، ويبشرون بدين الله فى أربعة أقطار الأرض . ورفرفت راية الإسلامية على قلاع فارس والروم والمغرب وأوربا ؛ ومضى جنود المسلمين من أبنائهم وحفدتهم يطئون العروش ويقتحمون الممالك وهتافهم يدوّى حيث كانوا : « باسمك اللهم ! باسمك اللهم ! »

محمد سعيد العريان

حكم استئنافياً بحبس مصطفى حسنين صالح الجزار بالزيتون بالقضية ن ٣٤١ المسيدة سنة ١٩٣٩ استئناف ٥٦٠ سنة ١٩٤٠ بجلسة ١٦ ديسمبر عشرين يوماً لبيعه لحوماً أزيد من التسعيرة .